ترحلات النسق ولبوساته: اللغوية، الأدبية، الثقافية

الأستاذة: ثورية برجوح
قسم اللغة والأدب العربي
كلية الآداب واللغات جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي
أ.د صالح مفقودة جامعة محمد خيضر- بسكرة
thouraia1980@gmail.com

ملخّص:

ترمي هذه الورقة البحثية رصد انزياحات النسق المستمرة وبوتيرة متسارعة من مجال معرفي إلى آخر، وتبين نقلاته المفاهيمية، فلفظ النسق مؤجل التحديد إلى حين اقترانه بلفظ آخر يصطبغ بصبغته، ويتلبس بمضامينه ويتكون بمكوناته: النسق/اللغة، النسق/العمل الأدبي، النسق/الثقافة، وبين هذه اللبوسات يبحث الفكر الغربي ولازال عن العلاقات والقوى الخفية المتحكمة في البنية الذهنية للفكر الإنساني، من خلال أقواله وأفعاله

Abstract

This paper aims at monitoring the continuous pattern shifts and accelerating pace in the field of knowledge to the other, and showing conceptual conveyances. The format of the design is delayed until it is accompanied by another term that is printed in its color and is composed by its components: layout / language, format / literary work, format / culture, and These metaphors examine Western thought and are still about the relationships and powers that govern the intellectual structure of human thought.

Keywords: Layout, Language Format, Literary Layout, Cultural Format.

يعد لفظ النسق من أكثر الألفاظ تداولا في العصر الحديث، حتى يكاد لا يخلو خطاب أو كتاب منه، وليس في هذا إشارة إلى موسوعية اللفظ أو لمسة مطاطية فيه، وإنما لارتباطه الشديد الدقة بألفاظ أخرى في ذات الفلك المفاهيمي؛ البنية والنظام، مما قد يسم تداوله بالخطأ أو المغالطة، أو بالصواب في حالة تحري الدقة. أما والحال هذه. نعرض المعاني اللغوية المتعلقة

بلفظ النسق ومعناه الاصطلاحي، والفروق المفاهيمية بينه وبين البنية ومن ثم النظام. وأهم المجالات المعرفية التي ترّحل عبرها النسق واصطبغ بها.

ورد في لسان العرب في مادة نسق: "النّسق من كل شيء: ما كان على طريقة نظام واحد، عام في الأشياء، وقد نسّقتُه تنسيقاً، ويُخَفَّفُ. ابن سيده: نَسَقَ الشيء يَنْسُقُه نَسْقاً ونَسَّقَه نظَّمَه على السواء، وانْتَسقَ هو وتناسَقَ، والاسم النَّسَقُ، وقد انْتسَّقَتْ هذه الأشياء بعضها إلى بعض، أي تنسَّقتْ. والنحويون يُسمُّون حروف العطف حروف النسق، لأي الشيء إذا عطفت عليه شيئاً بعده جرى مجرى واحداً، ورُويَ عن عمر، رضي الله عنه، أنه قال: ناسقوا بين الحج والعمرة؛ قال شَمِرٌ: معنى ناسقوا تابعوا وواتِروا(...).

وثَغْرٌ نَسَقٌ. إذا كانت الأسنان مستوية(...) قال أبو زُبَيْدٍ:

بجيد ريم كريم زانه نَسقٌ يكادُ يُلْهِبُهُ الياقوتُ إلهاباً

(...) والنَّسَقُ: كواكب مُصْطفَّة خلف الثريا(...)

ويقال رأيت نَسَقاً من الرجال والمتاع، أي بعضها إلى جنب بعضٍ".

من المعاني اللغوية التي تُقرن بلفظ النسق: التنظيم، النظام، التنسيق، العطف، التتابع، التسوية، حسن التركيب، الاصطفاف. وأكثر لفظ دقة يمكن أن تدرج ضمنه هذه المعاني اللغوية لفظ: نظام. وهو الأمر الذي يتواشج مع المفهوم الاصطلاحي.

ما من تحديد وضبط مفاهيمي للنسق متفق عليه، "ومع ذلك يمكن أن نستخلص نواة مشتركة من تلك التحديدات. والنواة هي أن النسق مكون من مجموعة من العناصر أو من الأجزاء التي يترابط بعضها ببعض مع وجود مميز أو مميزات بين كل عنصر وآخر"[1].

ومعنى ذلك أن النسق عبارة عن عناصر مترابطة متفاعلة متمايزة، إذ يتكون كل نسق من - عناصر جزئية- عناصر متعالقة، كليات موحدة للعناصر الجزئية. مما يسمح بهرمية متدرجة تجعل كل نسق محتوياً لأنساق أخرى.

للنسق جملة من الخصائص، لا بد من توفرها فيه، حتى يمكن وصفه بالنسقية، أجملها كليمون موازانClementMoisan في كتابه: ما هو تاريخ الأدب، وهذه الخصائص هي:

1- حدود قارة نسبياً يمكن التعرف إليه بها.

2- بنية داخلية مكونة من عدة عناصر منتظمة وتحيل على نفسها.

3- نسق الخطاب عضوي منفتح ومتغير ومتحول ويتوجه نحو التعقيد الذاتي. غير أنه يحافظ، مع ذلك، على ثابت أو ثوابت.

4- كلما كثر حذف عناصره قلّ تأثيره وإقناعه.

5- يشبع حاجات اجتماعية لا يشبعها نسق غيره"[2].

يتحدد معنى النسق وفق الحقل المعرفي الذي ينزاح إليه وبحسب المصطلحات التي يُقرن بها في علاقة إضافية ففي علم الاجتماع يوصف المجتمع بأنه نسق اجتماعي عام يتولد عنه نسق سياسي، ونسق ثقافي وهذه الأنساق في علاقتها ببعضها البعض مستقلة ومتساوية المسافة حيث عرّف تالكوتبارسونز النسق الاجتماعي في كتابه (بنية الفعل الاجتماعي) بأنه "نظام ينطوي على أفراد فاعلين تتحدد علاقاتهم بمواقفهم وأدوارهم التي تنبع من الرموز المشتركة والمقررة ثقافيا في إطار هذا النسق، وعلى نحو يغدو معه مفهوم النسق أوسع من مفهوم البناء الاجتماعي"[3].

وتتضمن فكرة النسق الاجتماعي الإشارة إلى البنية المحيطة به، حيث "يرتكز على معايير وقيم تشكل مع الفاعلين الآخرين جزءاً من بيئة الفاعلين"[4].

شكل النسق النظرة الجادة والنظرية الجديدة في محاضرات علم اللغة العام للعالم السويسري فرديناند دي سوسير(1857-1913) الذي اعتبر "اللغة نسق من الدلالات التي تعبر عن المعاني"[5] وقصد بها الطبيعة النظامية للغة، إن "ما يحكم العلاقة بين العناصر اللغوية ومستوياتها، ويربط بعضها ببعض هو ما يطلق عليه النسق، وأي اختلال في هذه العلاقة بين العناصر تُفقد النسق توازنه، وتغير ملامحه، وفي المقابل قد يشكل كل مستوى من هذه المستويات نسقاً داخل النسق العام للغة، وحينها يمكن الحديث عن النسق الصوتي والنسق الصرفي أو النسق النحوي أو النسق المعجمي داخل نسق لغوي ما، ويرادف النسق -هنا- مصطلح التضايق (Correlation) أو مصطلح البنية"[6].

يستشف من ذلك أن النسق في أبسط معانيه يعني العلائقية والارتباط، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، النسق عند دو سوسير قريب من مفهوم البنية التي كان لها الحظ الأوفر من الدراسة من بعده.

والبنية "نسق من العلاقات الباطنة (المدركة وفقا لمبدأ الأولية المطلقة للكل على الأجزاء) له قوانينه الخاصة المحايثة، من حيث هو نسق يتصف بالوحدة الداخلية، والانتظام الذاتي على نحو يفضي فيه أي تغير في العلاقات إلى تغير في النسق نفسه، وعلى نحو ينطوي معه المجموع الكلي للعلاقات على دلالة يغدو معها النسق دالاً على معنى"[7].

ولعل ما يفرق بين المصطلحين أن النسق له بنية متضمنة فيه مما يجعله يحمل خصائصها من كلية وتنظيم وتحول، فتضمن النسق للبنية قد يعني شموليته وفي هذه الحالة لا تُكوّن البنية نسقا، وقد يعني مساواته بها حيث تكون البنية النسق المغلق. وهذا ما تطرحه البنيوية اللغوية

السوسيرية؛ ويعود اهتمام البنيوية بمفهوم النسق إلى "تحول بؤرة اهتمام التحليل البنيوي عن مفهوم "الذات" أو "الوعي الفردي"، من حيث هما مصدر للمعنى، إلى التركيز على أنظمة الشفرات النسقية التي تنزاح فيها "الذات" عن المركز وعلى نحو لا تغدو معه للذات أي فاعلية في تشكيل النسق الذي تنتمي إليه، بل تغدو مجرد أداة أو وسيط من وسائطه أو أدواته"[8].

وإلى جانب ذلك يرتبط النسق بلفظ النظام؛ حيث تتفق أغلب المعاجم اللغوية في حصر معنى النسق في النظام؛ ليدل على "ما كان على نظام واحد من كل شيء"[9]. وأنه "نظام ينطوي على استقلال ذاتي يشكل كلا موحداً، وتقترن كليته بآنية علاقاته التي لا قيمة للأجزاء خارجها"[10].

وقد تبنى عديد الدارسين هذا المعنى؛ فعبد العزيز حمودة يتحدث عن النسق كمرادف للنظام في قوله: "اللغة نسق أو نظام، حيث أن كل نسق يتكون من وحدات تؤثر كل منها في الآخر"[11]. الأمر ذاته عند طه عبد الرحمن الذي يضيف لهما مرادفا آخر وهو البنية "فليس نظم الشيء سوى وضعه على نسق واحد، و(النظام) و(النسق) و(البنية) إنما هي ألفاظ مترادفة"[12].

ومرد ذلك الاشتراك العام في الصفات التي تفيد الضم والجمع والعطف في هيئة مستقيمة أو حسنة. غير أن النسق أعم من النظام فالنسق كمفهوم يمتد في اللغة وفي وضعيتها في أي خطاب كان، بينما يكاد النظام يختص بشكل أو بمادة معينة"[13].

لعل من النقاط الفارقة بين مصطلحي النسق والنظام؛ شمولية النسق في مقابل محدودية النظام، النسق عام والنظام خاص؛ النظام بمثابة الحيز من الفضاء الواسع. ولا يحمل كل خصائص النسق.

على غرار البنيوية اللغوية وطرحها للنسق اللساني حاول الدارسون بعد دوسوسير وضع نسق للأدب وفي مقدمتهم الشكلانيين الروس (فلاديمير بروب، تينيانوف، ياكبسون، إيخنباوم). وذلك في العقدين الأولين من القرن العشرين ـــ بالإجراء على آثار أدبية خاصة ومن ثم تعميم ما توصلوا إليه، "فالبنيوية اللغوية والأدبية تقوم على فكرة النسق الذي يحكم العلاقة بين المكونات الصغرى للنص من ناحية، والنسق الأكبر الذي يحكم العلاقة بين النسق الفردي للنص والنسق العام للنوع"[14] ومن الجهود المبذولة لتحديد نسق أدبي، دراسة فلاديمير بروب لمائة حكاية روسية عجيبة Contes Merreilleux حاول من خلالها "تحديد العناصر الثابتة والعناصر المتغيرة فيها، وخلص إلى أنه برغم تغير شخوص القصة إلا أن (وظائفهم) محددة وثابتة، ثم استخلص أربعة قوانين عامة تحكم التعامل مع القصة الخرافية، ثم قاده رصد وتحليل هذه القصص إلى تحديد الحد الأقصى من (الوظائف) المشتركة بإحدى وثلاثين وظيفة"[15]؛ والوظيفة تحيل على الحدث الذي له سابق ولاحق، فهي إنجاز الفاعل الذي يعرّف

بحسب معناه داخل مسار الحكي،"[16] وهي أداة من أدوات ترابط الحكاية الشعبية وكليتها، وقد علّل بروب هذا النظام الداخلي المتطابق بين الحكاية الشعبية ووجود وظائف ثابتة ومحددة بوجود بنية كلية في العقل الإنساني الذي هو جزء من نظام الكون مرآتها البنية السردية في الحكاية.

إن الأنموذج الوظائفي الذي توصل إليه أمكن تطبيقه على نصوص الرواية الحديثة دون الأنواع الأدبية الأخرى الأمر الذي أدى إلى عدم إمكانية تعميمه؛ فقد أريد له أن يُرادف النسق لما اتصف به من وحدة وترابط وكلية.

ومما حال دون إمكانية تطبيقه وتعميمه، تعامله مع النسق من جهة ثبوته، في حين، سمة النسق عدم ثباته وتحوله، ثم إن هذه الوظائف الثابتة لا تتماشى مع الطبيعة الديناميكية للإبداع الفردي، ناهيك عن اختلاف الحكاية الشعبية عن النصوص الأدبية الأخرى..

اجتهد الشكلانيون الروس لتكوين نسق أدبي بوصف ووضع ثوابت وقوانين تحكم بنية العمل الأدبي (المختلف والمتحول)، وهذا بمعزل عن أي مؤثرات خارجية (النسق العام الأدبي والثقافي) وفق الطرح الدو سوسيري، مما تمخض عنه نسق سمته الانغلاق يُتوصل إليه "بالانطلاق من الأنساق الفردية للبناء إلى إقامة نموذج لنسق أدبي عام باستخدام أدوات المنهج التجريبي التي تحقق للبنيوية الأدبية قاعدة علمية تماثل القاعدة العلمية التي تقوم عليها البنيوية اللغوية ثم العودة بعد ذلك إلى النصوص الفردية لدراستها في ضوء علاقتها بالنسق العام"[17].

إن هاته الخطوات الوصفية التجريبية المتفق حولها عند البنيويين لم تسعفهم في رسم حدود نسق للأدب، ولا بوضع نظرية نقدية للأدب. إلا أن الخطوة الجادة انبثقت من نتائج خطوات البنيوية؛ حيث كان كلود ليفي شتراوس يتبع باهتمام مستجدات الدرس البنيوي، الذي ما فتء أن استفاد منه في دراساته الأنثروبولوجية، بنقل المنهج البنيوي اللغوي إلى مجال يدرس الإنسان وإنتاجه (المادي والمعنوي)، وبفضل جهوده الأنثروبولوجية ومواكبته لمستجدات الدرس اللساني، استطاع أن ينقل المنهج البنيوي اللغوي خارج نسق اللغة إلى أنساق غير لغوية، ومجالات أخرى ثقافية نفسية بكتابه"الأنثروبولوجيا البنيوية" الصادر عام 1985 بجزأين، استثمر فيه مفهوم البنية لدراسة ميثولوجيا الإنسان البدائي وفهم بنية العقل البشري من خلال بنية الأساطير، حيث أن "هذه الأبنية الموحدة تتجلى خلال عملية تحليل الأسطورة، بالكيفية التي ينبثق بها الفكر اللاواعي في الوعي، خلال عملية التحليل النفسي، ولذلك يغدو الكشف عن هذه الأبنية نوعاً من أنواع التحليل النفسي الثقافي"[18]. فاللاوعي يتوسط البناءات الفوقية والبناءات التحتية فارضاً قواعده وقوانينه البنائية باعتبار عند ليفي شتراوس

مجموعة من الضغوط التي ينصاع لها كل تفكير، وهي ذات طبيعة سيكولوجية ومنطقية، كما أن هويتها واحدة لدى كل نفس إنسانية. فوجود أبنية موحدة للأساطير الإنسانية أرجعه إلى بنية عقلية مستترة موحدة.

ولرسم نسق الفكر الإنساني انطلق كلود ليفي شتراوس من الأسطورة بنسقها العلاماتي الرمزي. وفي هذه الفترة عرفت السيميائية بدايتها الحقيقية كعلم يُعنى بدراسة الأنساق القائمة على اعتباطية الدليل أو العلامة.

رغم نبوءة دو سوسير القبلية في قوله: "يمكننا -إذن- أن نتصور علما يدرس حياة العلامات في كنف الحياة الاجتماعية، قد يشكل قسماً من علم النفس الاجتماعي، وإذن من علم النفس العام، نسميه السيميولوجيا-Semiologie- (من الكلمة الاغريقية Semeion بمعنى علامة/Singne) التي يمكن أن تنبئنا بما تتكون منه العلامات، والقوانين التي تحكمها"[19].

وأردف على ذلك أن "الألسنية ليست إلا قسماً من هذا العلم العام الذي ستغدو القوانين التي يكشفها قابلة للتطبيق على الألسنية"[20]. غير أن رولان بارت قد عكس صياغة دوسوسير من خلال مؤلفه (نسق الموضة) "الذي محضه لدراسة عالم الأزياء والأناقة وما في حكم ذلك من علامات غير لغوية، إلا أنه تجاوز لا لغوية هذه العلامات، إذ أعرب عن أنه (لا يشتغل على الموضة الحقيقية بل على الموضة المكتوبة)، أي على الأزياء كما تصورها جرائد الموضة"[21]؛ أي كيف تبلور اللغة بوصفها نسقا علاماتيا هوية العلامة غير لغوية/الموضة وتمنحها قيمة.

وطالما أن اللغة نسق من الدلالات أو العلامات فهي تنقسم بحسب السيميائية إلى قسمين كبيرين: "أنساق دلالية طبيعية وأنساق دلالية اجتماعية؛ والأنساق الدلالية الطبيعية هي تلك الأنساق التي توجد في الطبيعة، وتتسم هذه الأنساق بكونها غير مؤسسة إلا أن الإنسان وظفها داخل مملكة الدلائل أي أنه أسند إليها دلالات مخصوصة. أما الأنساق الدلالية الاجتماعية(...) هي تلك الأنساق التي تتميز بكونها مؤسسية وبكونها من نتاج عمل الإنسان"[22].

وتنقسم الأنساق الدلالية الاجتماعية بدورها إلى أنساق دلالية اجتماعية لفظية وأنساق دلالية غير لفظية.

وسبقت الإشارة إلى أن السيميائية تدرس الأنساق القائمة على اعتباطية العلامة/الدليل حيث العلاقة بين الدال والمدلول اتفاق جمعي، وهو ما يسمى بالعلامة/الرمز المشحون بدلالات متعددة ومحتملة للمعنى. ومهمة المقاربة السيميائية بأدوات الوصف والرصد والتركيب، والتفكيك والتأويل للأبنية السطحية حيث يقع المعنى، "فالمقاربات النقدية تلجأ إلى الكشف عن الخفي والمستور، ويتمثل ذلك في نسق التركيب وجمالياته، لترتد الدراسة السيميائية للنص

الأدبي من داخل البناء الإبداعي في تعالق عناصره إلى خارجه أي إلى العالم الدلالي، عالم الأفكار والأشياء والمفاهيم"[23]. وفي ظل اقتران لفظ النسق بلفظ العلامة/الرمز اصطبغ بالضرورة بصبغة الخفي والجلي، الظاهر والباطن.

تمثل مقولات دي سوسير مرجعية للعديد من النظريات ومجال استثمار فكري لاتجاهات عدّة بفعل الاستمرار أو الانفصال أو القطعية. وقد تأسس على نبوءته حول علم يدرس حياة العلامات في كنف الحياة الاجتماعية اتجاه أطلق عليه اسم سيميوطيقا الثقافة، نشأ في كل من روسيا (يوري لوتمان، أوسبانسكيOuspensky، إيفانوف Ivanov، طوبوروفToporov)وايطاليا (أمبرتو إيكو، وروسي لاندي)، الذي رسم الثقافة مجموع تعليمات وبرامج تتحكم في سلوك الفرد ذلك "أن الإنسان يراكم ويُعِدُّ الأخبار المستعمل لإدخال تصحيحات ضرورية في برامج السلوك، ويعني ذلك أن حصيلة عمل الإنسان تكمن في سلوك ذي معنى، وهذا البرنامج المعين هو الثقافة(...) إنها تلك التعليمات التي تتحكم في كل سلوك الإنسان أو التي يصدر عنها كل سلوك إنساني"[24].

وبإسقاط صياغة دوسوسير؛ أن اللغة نسق من العلامات تعبر عن معاني، وأن اللغة تتحكم في الكلام كما تتحكم المؤسسات والقوانين الاجتماعية في الأفراد، يمكن اعتبار الثقافة نسق عام يتكون من أنساق ثقافية دالة تصوغ بقوانينها الخاصة الواقع. مما يجعل الأنساق الثقافية علامات.

وفي ضوء انفتاح النسق على مكون الثقافة-اللغة "يؤسس نظاما من العلاقات المرجعية الخاصة والاحتمالات الإشارية اللانهائية، حيث تضحى العلاقة بين الدال والمدلول اعتباطية لا حد لها"[25]. تُعنى سيميوطيقا الثقافة بتفسير العلامة/النسق الثقافي وفهم دلالتها الثقافية داخل الخطاب، وفي علاقتها بالسياق الثقافي.

عُنِي بلفظ الثقافة عناية فائقة واكتسب معنى واسعاً بفضل الدراسات الثقافية الاجتماعية والأنثروبولوجية*، وضمن هاته الجهود المبذولة لتحديد ماهية الثقافة، محاولة المفكر الأنثروبولوجي البريطاني ادوارد بيرنت تايلور (1832-1917) Edward Burnett Tylor في كتابه المكون من جزأين "الثقافة البدائية" Primitive culture الذي نشر عام1871 بمقولته - التي لاقت قبولا كبيراً ورواجاً واسعاً- من قبل المنشغلين بها :" الثقافة بمعناها الأناسي الأوسع، هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والأعراف، والقدرات، والعادات الأخرى، التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضواً من المجتمع"[26]. فهي بحسبه شاملة لكل مناحي حياة الإنسان، مكتسبة، مشتركة.

أورد ألفريد كروبيرKroeberوكلايدكلاكهونKluckhonn في كتابهما الموسوعي "الثقافة: عرض نقدي للمفاهيم والتعريفات" سنة 1952 ما لا يقل عن مائة وأربعة وستين تعريفا للثقافة، ورغم زخمها إلا أنها انشغلت بتعداد ووصف مكونات الثقافة عنها، ومن ذلك توصيف كلاكهون للثقافة بأنها "مخططات للحياة تاريخية المنشأ توجد في أي وقت من الأوقات كموجهات لسلوك الأفراد"[27]، وإلى جانب ذلك، أشار إلى عنصر جوهري هام في كون الثقافة متناقلة عبر الأجيال، وهو ما يعادل عند رالف لنتونR. Linton الوراثة الاجتماعية.

وفي هذه الفترة -خمسينيات القرن الماضي- ظهرت تعريفات ما بعد حداثية للثقافة انطلقت من نقدات المفهوم التايلوري -إن صَح التعبير- الذي ينظر للثقافة كأفعال أو كمؤسسات لا كأفكار ومعاني. حيث يعرف ريموند وليامز (1941-1988) الثقافة في كتابه الثقافة والمجتمع (1780-1950) سنة 1958 بقوله: "أربعة معانٍ متميزة للثقافة هي: الثقافة بوصفها طبعاً عقليا فردياً، والثقافة بوصفها حالة من التطور الفكري الذي يصيب مجتمعا كاملا، والثقافة بوصفها الفنون والآداب والمعارف، والثقافة بوصفها طريقة حياة كلية لمجموعة من البشر"[28].

وهو ما يذهب إليه توماس إليوتEliot بقوله: "أول ما أعنيه بالثقافة هو ما يعنيه الأنثروبولوجيون، طريقة حياة شعب معين، يعيش معاً في مكان واحد، وهذه الثقافة تظهر في فنونهم، وفي نظامهم الاجتماعي، وفي عاداتهم وأعرافهم، وفي دينهم"[29].

لعل الثقافة بحسب هؤلاء أقرب ما تكون إلى نظرة مجتمع ما للوجود تمخضت بتراكم رؤى وخبرات أفراده عبر الزمن، بُلورت في أسلوب عيش، ميزها عن غيرها.

ويقدم عالم الاجتماع الأمريكي بارسونزParsons تعريفه للثقافة على أنها "مجموع المعارف والمعتقدات والقيم في مجتمع معين (...) وحسبه أن البشر يشكلون عالماً رمزياً يستخلصونه من الأفكار المتلقاة وتفرض تلك الأفكار تأثيرها على اختياراتهم في العالم الواقعي، فالبشر لا يبنون فقط عالماً من الرموز بل إنهم يعيشون فيه بالفعل"[30]. حيث يشير إلى أن الثقافة أفكار تتحكم في السلوك بتقنينه وإخضاعه لمعايير معينة. مقترحا حصر الثقافة "في المحتوى المنقول والمبتكر وأنماط القيم والأفكار، وغيرها من النظم الرمزية الأخرى ذات المغزى باعتبارها تشكل السلوك الإنساني والمنتجات الناتجة من هذا السلوك"[31].

وحيث أن الثقافة تفرض أن كل سلوك يحمل معنى، هو ما ذهب إليه أ. ب ـــ طومسون في تعريفه لها بقوله: "الثقافة نمط من المعاني تتجسد في أشكال رمزية،بما في ذلك الأفعال والألفاظ والأشياء ذات المغزى من مختلف الأنواع، التي بموجبها يتواصل الأفراد مع بعضهم البعض ويقتسمون الخبرات والتصورات والمعتقدات"[32].

تبنى كليفورغيرترGliffordGeetz اقتراح أستاذه بارسونزParsons، اعتبار الثقافة "نظاما تراتبيا من المعاني والرموز(...) يعرِّف الأفراد من خلالها عالمهم، ويعبِّرون عن مشاعرهم، ويصدرون أحكامهم"[33] وهي بحسبه "آليات الهيمنة، من خطط وقوانين وتعليمات، كالطبخة الجاهزة، التي تشبه ما يسمى بالبرامج، في علم الحاسوب، ومهمتها هي التحكم بالسلوك"[34]. وقد نظر للثقافة بوصفها نصاً من الإشارات والرموز في حاجة ماسة إلى مؤول ومفسِّر كأي نص يحمل معنى.

لقد تغير منظور العناية بالثقافة في الدراسات الأنثروبولوجية والثقافية من رصد مكوناتها وتحديد موضوعها إلى ما تؤديه من أدوار؛ بالدرجة الأولى سياسية، حيث أن السياسة في حاجة ماسة إلى تعاضد الثقافة لحل مشكلاتها وفرض سيطرتها. أو أن الثقافة نقد للسياسات المهيمنة.

حيث يؤكد تيري إيغلتون "أن الثقافة نتاج سياسي أكثر بكثير من كون السياسة تلك الخادمة المطيعة للثقافة"[35]. أما والحال هذه، فهي عند فريدريك شيلر "في الحقيقة آلية ما يسمى فيما بعد "هيمنة" تصوغ الذات البشرية وفقاً لحاجات نظام حكم"[36].

ويعرف ستيوارت هول STUART HULL الثقافة بقوله:" إن الثقافة هي الممارسات المعيشية أو الأيديولوجيات العملية التي تمكن مجتمعا أو جماعة أو طبقة من اختيار شروط وجودها وتعريفها وتأويلها وإضفاء معنى عليها"[37].

ومن الأمور الجوهرية التي يمكن أن تنضاف لدلالة مفهوم الثقافة :

- أنها نسيج من الأفكار والمعتقدات والعادات والعرف والأخلاق والقانون، المستمدة من الدين والسياسة والاقتصاد والتاريخ.
- أنها نتاج قيمي موجِّه للسلوك، متغير باستمرار.
- أنها مجردة، تحدث على مستوى الذهن.
- مكتسبة عن طريق التربية والتعليم والتنشئة الاجتماعية بوعي وفي الأغلب دون وعي.

ويمكن رصد بعض الخصائص المشتركة بينهما:

- . الكلية؛ حيث يشمل كل منهما أجزاء أو عناصر متعالقة، متمايزة، متفاعلة
- . عدم ثباتهما وتغيرهما المستمر

ـ ممارسة الهيمنة؛ فالنسق وفق رأي ميشيل فوكو Michel foucault "مجموعة من العلاقات، تستمر وتتحول في استقلال عن الأشياء التي ترتبط فيما بينها، أو هو فكر قاهر قسري مغفل الهوية. وهو بنية نظرية كبرى تهيمن في كل عصر على الكيفية التي يحيا عليها البشر ومن

خلالها يفكرون"[38]، وإلى جانب أن الثقافة كائن حي متطور وذات تأثير "تعمل دوما على توجيه الفرد، وإعطائه وجهة النظر إلى الأشياء، إذ تعيد صياغة فكره بناء على المعطيات المتوفرة."[39]

تولف مفهوم النسق مع مفهوم الثقافة ليشكلا معا مصطلح النسق الثقافي، أما عن لحظة اقتران كل منهما بالآخر فيذكر الناقد نادر كاظم أنه "يتعذر بالضبط تحديد اللحظة التي ولد فيها المفهوم، ولكن ما هو في حكم المؤكد أن هذا المفهوم من نتاج حقلين أساسيين هما الأنثروبولوجيا والنقد الحديث، وتحديدا من نتاج التداخل الثري بين هذين الحقلين في فكر الأنثروبولوجي الأمريكي المعاصر كليفوردغيرتزGliffordgeertz"[40]، ويمثل النسق الثقافي نواة الطرح النقدي الثقافي الذي استثمر " المفهوم العام(اللساني والأدبي) للنسق ولكنه اتجه به وجهة أخرى غير الوجهة المعروفة فالنسق على وفق النقد الثقافي هو نسق ثقافي، لا يتمثل في اللغة ولا يتمثل في تركيبة النص الأدبي ونظامه الذي يشترك فيه مع أبناء جنسه، إنما هو نسق دلالي يتمثل في مضمون النص الثقافي وحمولاته الثقافية."[41]

يصطبغ النسق بصبغة الثقافة ويتلبس بمضامينها ويتكون من مكوناتها. يتبنى المجتمع قيما وعادات معينة وفق تصوره واعتقاده لما ينبغي أن تكون عليه حياة أفراده في مختلف الجوانب: اجتماعية، دينية ، اقتصادية، ومن هذه القيم والعادات ما يحظى بالقبول والانتشار والاستهلاك الجماهيري، فتغدو موجهات لسلوك الأفراد وضوابط متحكمة في تفكيرهم وأهوائهم، وتتحول إلى أنساق، ولا تغدو هذه المكونات الثقافية "نسقا إلا حينما تتكرر وترسخ، فالأفكار والقيم والأعراف والأيديولوجيات، حينما تتعزز داخل الثقافة وتتضمنها نصوصها، حينئذ فقط تصبح أنساقا تمارس فعلها في التأثير داخل النص الثقافي وخارجه على فعلي الإنتاج والاستهلاك معا"[42]، فالنسق انبناء في الحركة التاريخية "من تراكم أثر على أثر في العقل الجماعي ثم الانتشار، وهنا يمتلك القدرة على التحكم في ردود الأفعال، ومن ثم السيطرة والهيمنة على الأفراد، ويصبح النسق لا هم له سوى أن يجعل من قيمه أقنعة لأفكار مثالية توهم الذات بأنها السبيل إلى الحياة"[43]، وهذه القيم ذات صلة وثيقة بعملية إنتاج أي خطاب، فالخطاب الأدبي سيما الجمالي " يقدم في مضمره أنساقا تنسخ القيم وتنقض ما هو في وعي أفراد، أي: ثقافة، وهذا معناه أن في الثقافة عللا نسقية لم تكتشف، ولم تفضح، ويكون الخطاب متضمنا لها، دون وعي من منتجي الخطاب ولا من مستهلكيه."[44]

يتعامل النقد الثقافي مع النصوص والخطابات الجمالية والفنية ويتغيا من ورائها كشف ما تؤديه الأنساق الثقافية المضمرة من وظائف نسقية، وهي بحسب كليفوردغيرتز "مجموعة من ميكانزمات الضبط والتحكم ـ مثل الخطط، والوصفات(الغذائية أو الطبية)، والتعليمات ـ وهو

ما يسميه مهندسو الحاسوب ب (البرامج) للتحكم في السلوك"[45]، ويعمل النسق الثقافي بوصفه تشريعا إنسانيا على تحديد رؤية الأفراد لعالمهم وضبط سلوكياتهم والتأثير فيها، وفي ذلك يرى نادر كاظم أن "للأنساق وظيفة مزدوجة، فهي تعطي للعالم بنيته ومعناه أمام الإنسان، وهي كذلك تشتغل كأدوات هيمنة على تفكير هذا الإنسان وسلوكه"[46] بشكل متوار خلف نصوصه وخطاباته وممارساته.

الهوامش

-[1]محمد مفتاح، التشابه والاختلاف، ص158.

-[2]المرجع نفسه، ص48.

-[3]إديث كيروزيل، عصر البنيوية، تر: جابر عصفور، دار سعاد الصباح، الكويت، ط1، 1993، ص411.

-[4]إيان كريب، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، تر: محمد حسين غلوم ومحمد عصفور، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد244، إبريل 1999، ص66.

-[5]فرديناند دو سوسير، محاضرات في علم اللغة العام، منشورات المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1986، ص31.

-[6]أحمد يوسف، القراءة النسقية سلطة البنية ووهم المحايثة، ج 1، ص121.

-[7]إديتكيروزيل، عصر البنيوية، تر: جابر عصفور، ص413.

-[8]إديثكريزويل، عصر البنينوية، تر: جابر عصفور، ص415.

-[9]إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 2004، ص.919

-[10]إديتكريزويل، عصر البنيوية، تر: جابر عصفور، ص415.

-[11]عبد العزيز حمودة، الخروج من التيه دراسة في سلطة النص، ص285.

-[12]طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1998، ص34.

-[13]محمد ولد عبدي، السياق والأنساق في الثقافة الموريتانية (الشعر نموذجا) مقاربة نسقية، دار نينوى، دمشق، سوريا، دط، 2009، ص13.

-[14]عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك، ص119.

-[15]المرجع نفسه، ص119.

-[16]أحمد يوسف، القراءة النسقية، ص125.

-[17]عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك، ص201.

-[18]كلود ليفي شتروس، الأسطورة والمعنى، تر: شاكر عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد العراق، 1986، ص06.

-[19]فرديناند دو سوسير، محاضرات في الألسنية العامة، تر: يوسف غازي ومجيد النصر، ص33.
-[20]المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
-[21]يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي(مفاهيمها وأسسها تاريخها وروادها، وتطبيقاتها العربية)، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط3، 2010، ص94ص95
-[22]حنون مبارك، دروس في السيميائيات، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1987، ص22.
-[23]عبد الجليل منقور، المقاربات السيميائية للنص الأدبي، أدوات ونماذج، محاضرات الملتقى الوطني الأول السيمياء والنص الأدبي، قسم الأدب العربي، جامعة محمد خيضر بسكرة، 7-8 نوفمبر2000، ص60.
-[24]حنون مبارك، دروس في السيميائيات، ص87.
-[25]يوسف عليمات، النسق الثقافي قراءة ثقافية في أنساق الشعر العربي القديم، عالم الكتب الحديث، إربد، ط 1، 2009، ص69.
*الأنثروبولوجية: علم الإنسان، استعملت هذه العبارة أول مرة من قبل ديدرو (Diderot) عام 1775.
-[26]دوني كوش، الثقافة في العلوم الاجتماعية، تر: نعيمان عثمان، ص 22
-[27]محمد الجوهري علياء شكري، مقدمة في دراسة الأنثروبولوجيا، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، القاهرة،ط1، 2008، ص135.
-[28]ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، ص81.
-[29]توماس إليوت، ملاحظات نحو تعريف للثقافة، ص171.
-[30]محمد الكوخي، سؤال الهوية في شمال إفريقيا (التعدد والانصهار في واقع الإنسان واللغة والثقافة والتاريخ)، إفريقيا الشرق، المغرب،2014، ص190.
-[31]آدم كوبر، الثقافة التفسير الأنثروبولوجي، تر: تراجي فتحي، عالم المعرفة، الكويت، 2008، ص83.
-[32]تيم إدواردز، النظرية الثقافية وجهات نظر كلاسيكية ومعاصرة، تر: محمد أحمد عبد الله، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2012، ص192.
-[33]آدم كوبر، الثقافة التفسير الأنثروبولوجي، تر: تراجي فتحي، ص97.
-[34]عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ص78.
-[35]تيري إيغلتون، فكرة الثقافة، تر: شوقي جلال، ص30.
-[36]المرجع نفسه، ص22.
-[37]ميجان الرويلي سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، ص 80
-[38]نقلا عن: ناصر الحجيلان، الشخصية في قصص الأمثال العربية (دراسة في الأنساق الثقافية للشخصية العربية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2009، ص.32
-[39]محمد عبد الكريم الحميدي، السياق والأنساق(ما السياق؟ ما النسق؟)، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط1، 2013، ص56
-[40]نادر كاظم، تمثيلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي في العصر الوسيط، ص 92

-[41]عبد الله حبيب التميمي سحر كاظم حمزة الشجيري، دونية المرأة في المجتمع الجاهلي وفوقيتها في الشعر، مجلة جامعة بابل، العلوم الإنسانية، المجلد 22،ع 2، 2014، ص 316

-[42]عبد الله حبيب التميمي وسحر كاظم حمزة الشجيري، دونية المرأة في المجتمع الجاهلي وفوقيتها في الشعر، ص 316

-[43]عبد الفتاح أحمد يوسف، قراءة النص وسؤال الثقافة، ص 79

-[44]عبد الله الغذامي عبد النبي اصطيف، نقد ثقافي أم نقد أدبي، ص 33

-[45]كليفوردغيرتز، تفسير الثقافات، ص.44

-[46]. *نادر كاظم، الهوية والسرد، ص 64*